**جمهورية العراق / بغداد / الجامعة المستنصريَّة / كليَّة الآداب**

**قسم اللغة العربيِّة / الأدب الأندلسي / أُستاذ المادة أ.م.د قصي عدنان الحسيني**

**المرحلة الثَّالثة/ مسائي/.....1436ـ1437هـ /2015ــ 2016م**

**الحياة العامة للأندلسي / القسم الثّاني**

**الغذاء :**

ليس من شك في أن الحديث عن الغذاء ــ أهم مطالب الحياة ــ صفته ,ألوانه ، وطرائق إعداده ، وطبخه ، وكيفية تقديمه ، له أهمية قصوى للتعرف على وجه أساسي من وجوه الحياة الأندلسية ، والباحث في هذا الميدان يلاحظ قلة ما وصل إلينا من كتب المؤلفين الأندلسيين في هذا الفن نعني بذلك فن الطبخ على عكس ما كان في المشرق .

وأول ما يصادفنا في هذا الشأن ما يُذكر من آثار زرياب الاجتماعية أنه أول من سنّ في الأندلس أكل ضربين من الطعام ، وهما الهليون " وهو ضرب من الطعام تتخذ من بقلة الهليون " ، والتقاوى " ضرب آخر يعمل بالكزبرة " ، مع إضافة ما يجعلهما ألذّ وأشهى ، ويحسب له أنه أشاع بينهم التقلبة المنسوبة إلى اسمه ، ويحسب له كذلك تعليمه أهل قرطبة أكثر طرائق الطبخ البغدادي تعقيداً ، وتدريب الناس على إعداد وتقديم الوجبة الراقية ، وهناك أحاديث متناثرة عن بعض الأطعمة في أول كتاب الحسبة في الأندلس ، وهو كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر الأندلسي ( سنة 289 هــ ) على أننا نقرأ بعد ذلك حديثاً عن أطعمة متعددة في كتاب ثلاث رسائل أندلسية ، ومن الأطعمة الأخرى الفول ، والحرشف " وهو ضرب شائع من المأكولات في الأندلسيين " فضلا عن الثمار والفواكه .

**الكساء :**

لقد مثّل اللباس إلى جانب المسكن والطعام المطلب الثالث المهم عند الأندلسي شأنه شأن الكائن الإنساني في كل مكان وزمان ، وإذا كان أهم ما يعتبر ترفاً أن يكون الإنسان حسن اللباس ، فقد كان الأندلسيون في هذا الميدان من أكثر خلق الله عنايةً بنظافة ما يلبسون وجمال ما يتخذون من فراش وآنية ، على أن صناعة المنسوجات والملابس المزدهرة ، كانت من أرقى الصناعات الأندلسية ؛ لوفرة موادها الأساسية من قطن وصوف وحرير وفراء ، زيادة على مهارة العاملين في هذه الصناعة ؛ لتكون خير معين لهم في التأنق وجمال المظهر .

وما يُحكى عن مدينة واحدة من مدن الأندلس ، وهي المرية تُغني عن التفصيل ، فقد كان بها من طرز الحرير "800 " طراز ، ينتج فيها أنواع فاخرة من الديباج والقسطلون والأصفهاني والجرجاني والستور المكللة والثياب المعيّنة ، وقد وقفت إلى جانبها مدن أخرى بوصفها مراكز للوشي والحرير والفراء ، وما إليها من فاخر الثياب .

**ملابس النِّساء:**

ملابس النِّساء تأخذ أشكالا مختلفة في طريقة تفصيلها بحسب أجزاء الجسم ، أُطلقت عليها بالتقريب بنفس الأسماء التي شاعت في المشرق ، سواء في ذلك ما يغطي الجزء الأعلى من البدن أم الأسفل منه ، وعلى سبيل المثال ، فإن المرأة في الأندلس ترتدي الدرع " وهو القميص " ، والمرط " وهو الذي يأتي ساتراً للجزء الأسفل من البدن ن ويُسمّى المئزر أيضاً " فضلا عن الخمار ، واللثام .

**ملابس الرجال :**

أما الرجال ، فإنّهم كانوا يرتدون مثل المشارقة الظهائر والقمصان والسراويل على نحو مألوف للغالبية الكبرى يضاف إليها ألوان من الفراء والأبراد المحبّرة المفاضة على الجسم كله ، لباسا للعظماء من الناس ، ولباس الرأس كان من عادة خواص الناس وأكثر عوامهم أنّهم لا يمشون من دون طيلسان ، ومن تحته الغفائر المسدلة جزء منها على القفا ، وكانت هذه الغفائر تأخذ ألواناً متعددة .

أما القلانس الطويلة فكانت تميز عليّة القوم في سلّم الطبقات الاجتماعية .

**النظافة والحمامات :**

أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة مايلبسون ، وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لايكون عنده قوت يومه ، فيطويه صائماً ، ويبتاع صابونا يغسل فيه ملابسه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها على حدِّ ما يروي المقّري .

وعلى هذا النحو صارت النظافة ، وعادة التطهير ، وإبقاء الحياة في أنقى صورة سمة بارزة من سمات الأندلسي المسلم ، على أن هذا الكلف بالنظافة أيضا يُفسر لنا هذه العناية الفائقة بإنشاء الحمامات العامة ، والخاصة التي تكشف لنا وجها مضيئا من وجوه الحياة الاجتماعية الأندلسية .

والحق إنه أينما وجت تجمعات سكانية في العصر الإسلامي وجد حمام ، أو أكثر ، وقد رأينا ذلك عند المسلمين عنايتهم بالحمامات في تخطيط المدن ، فكان في قرطبة وحدها كانت تتمتع بوجود أكثر من 600 حمام عام ، إلى جانب الحمامات الخاصة الكثيرة بطبيعة الحال .

**الأعيـــــــــــــاد :**

كانت الأعياد مناسبة ؛ لالتقاء ا لطبقات الاجتماعية مع ما كان يلازمها من احتفالات وعادات تمثل كبرى هذه المناسبات الكريمة التي تتجلى فيها روح المودة والانسجام بين العناصر البشرية المكونة للمجتمع الأندلسي بقدر ما تتجلى فيها سمات الرقة والبهجة المحيطة بالحياة العامة عند الأندلسيين ، وكانت هذه الأعياد تقع على مدار السنة ن ويشارك فيها كل عناصر المجتمع تقريبا من دون تمييز عنصري أو ديني ملحوظ ، ولعلّ عيد الفطر والأضحى من أهم الأعياد لديهم ، فضلا عن عيد النيروز والمهرجان ، وعيد الفصح .

**الموسيقى والغناء والرقص :**

والأندلسيون الذين أُغرموا بارتياد الحمامات ، ومباهج الأعياد على نحو ماتقدم قد تعلقوا بأمور اجتماعية أخرى راقية ، نشأت وترعرعت في ظل التسلية والترويح عن النفس بأكثر الأساليب سمواً ورفعة ، وقد بدت الموسيقى والغناء والرقص في سماء العبقرية الأندلسية الخالدة متألقة وهاجة تحكي روعة الحضارة والفن الأندلسي ،.

إنّ الأصول الموسيقية التي وضعها زرياب وتلامذته كانت تمثل أساسا للغناء والموسيقى في الأندلس ، وعلى الرغم من اعتراض بعض الفقهاء على الاشتغال بالموسيقى والغناء ، سارت جنبا إلى جنب مع الرفاهية المادية ، والعظمة السياسية ، والازدهار الأدبي منذ أن تأسست الدولة العظمى ن وقد جعل زرياب ومدرسته للموسيقى الأندلسية طابعها الخاص ، وخلق لها عشاقا كثيرين ، وخلصها من التقاليد الموسيقية القديمة كما خلق لها فنا غنائيا يصوِّر جمال الأندلس ، ويعبِّر عن حضارته .

**الألعاب والرياضيات :**

كان الأندلسيون يفرجون عن أنفسهم بألوان من المتع ، كالموسيقى والغناء والرقص، وارتياد الحمامات ، والاحتفالات الكثيرة التي تتخللها ضروب من الملاهي ، والاستعراضات المسلية ، ثم الخمر ، ومجالسها العامرة ، وتحدثنا أشعارهم عن ضروب أخرى من الألعاب والرياضة الراقية التي مثّلت وجها آخر مضيئاً من وجوه المسرات التي تجري في أوقات الفراغ ، وفي مقدمتها لعبة الشطرنج ، وبراعة الأندلسيين المسلمين في هذه اللعبة كانت إحدى الحيل التي استخدمت لخداع العدو ، وإلهائه ؛ حتى يتجنب المسلمون هزيمة متوقعة في بعض مراحل التاريخ الأندلسي ، وإذا كان الشطرنج رياضة عقلية ، فإنّ اللعب بالصولجان ، والكرة من الرياضات البدنية ، وكان أكثر مايشتغل به الكبراء والعظماء ، فضلا عن السباحة ، و رياضة الصّيد التي بقيت محتفظة بكل متعها ، وبكل ما لها من شأن كما كان الحال في المشرق ، وكانت تُستخدم الحيوانات في الصّيد ومنها : الكلاب والبازي ، زيادة على صيد السّمك .

**مكانة المرأة ، وأثرها في الحياة الأندلسية :**

لقد شغلت المرأة الأندلسية مكانا فسيحاً في المجتمع ؛ مؤدية مهمتها في مختلف مجالات الحياة الأندلسية شغلته ، أُماً كانت حانية ، وزوجة وفيّة ، وهنا نراها مرة أخرى مجدّة في ميدان العمل العام ‘ مثلما نجدها ماهرة في واجباتها المنزلية نجدها معينة لزوجها في كثير من شؤون الحياة ، كما نراها خليلة ، وجارية تثري الوجدان ، وتسطع في الميدان الحياة العاطفية سحرا وجمالا، زيادة على مشاركتها في الحياة العامة ؛ لتنال شرف النضال في كثير من الميادين في مجتمع قائم على الكدّ ، وتجويد الأعمال ، وتدبير المعاش ، وسمات الناس فيه أنهم إذا رأوا شخصاً صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبّوه ، وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد في الأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر، ومن هنا نجد صنوفا من العاملات ، ففي قصر الحكم بن عبد الرحمن مثلا نلتقي بكاتبته لبنى الموصوفة بالحذق في الكتابة ، والنحو والشعر وبالبصر بالحساب والمشاركة في العلم والعروض وتجويد الخط جداً .

**في مواقف الحياة الجادّة :**

**أ : المهن العليا :**

وصف لنا ابن غالب صاحب كتاب فرحة الأُنس الأندلسيين في ميدان النشاط الجادّ بقوله : (( إنّهم يونانيون في استنباطهم للحياة ، ومعاناتهم لضروب الفراسات ، واختيارهم لأجناس الفواكه ، وتدبيرهم لتركيب الشجر ، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر ، وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ... ، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ، ومقاساة التعب في تجويد الأعمال ، ومقاساة النصب في تحسين الصنائع )) .

ومن أبرز المهن العليا المحاولات حكيم الأندلس عباس بن فرناس "274 هــ" القائمة على شيء غير قليل من التجربة والاستهداء العلمي الرفيع ، ومن ذلك محاولته الرائدة في اقتحام الجو طائراً ، وقد كاد أن يحقق بها أمنية طالما تشوق الإنسان لها فجر وجوده ؛ لمنافسة الطيور ، ومعرفة المجهول ، واكتشافه ، وقد نسب إلى عباس بن فرناس أيضاً أنه أول من استنبط في الأندلس **صناعة أرقى أنواع الزجاج ،** وهو المعروف الآن ب " الكريستال " من الحجارة اللامعة ، ومن الصناعات الأندلسية أيضاً **الصياغة ، وتشكيل المعادن** التي ضمّت أشتاتاً من الفنون الصناعية الجميلة من حلى وتحف وأدوات حضرية راقية ، أحاطت بحياة الأندلسي المترف المولع بمظاهر الزينة ، والانتشاء بآثار الفن ، وهذه الفنون التشكيلية كانت تهيئ حياة طيبة للطبقة الوسطى التي كانت تتخذها سبيلا لكسب العيش ، حتى أن فخر الدولة ، وهو أحد أبناء المعتمد بن عبّاد لم يترفع عن احتراف الصياغة سبيلا لكسب القوت ، بعد عزل أبيه عن السلطة .

وكانت **صناعة ا لغزل والنسيج** **، والحياكة** من الصناعات الممتازة في الأندلس ، ولا سيما صناعة الحرير ، إذ قامت شهرة بعض المدن عليها ، ومنها جيّان التي سُميّت بجيّان الحرير، وقيل : إن عدد النساجين في قرطبة وحدها 130 ألف نسّاج .

ومن الصناعات الأخرى في الأندلس **الوِراقة ،** التي ازدهرت بازدهار الحضارة ، والرغبة في إنشاء المكتبات العظيمة ، والتنافس العجيب في اقتناء الكتب القيِّمة ، على نحو ما هو معروف عن الحكم المستنصر مثلا ، وقد استوعبت هذه المهنة كثيراً من العاملين أيام رواجها ، حتى رأى الناس في ناحية واحدة من نواحي قرطبة ، وهي الربض الشرقي منها مئة وسبعين امرأة عاملة في نسخ القرآن بالخط الكوفي ناهيك عن جميع جهاتها ، وعن المدن الأُخرى ، وعن المدن جميعها .

أما **الفلاحة** التي تُعدّ أم المهن ، وقاعدة الحضارة في الأندلس ، فقد ازدهرت القصور الريفية في إنشاء الحدائق ، وغرس الأشجار ، وزراعة الأزهار المتنوعة بطريقة مُثلى .